

قراءة في كتاب " تاريخ الجزائر الثقافي " لأبو القاسم سعد الله التيارات والمؤثرات في الحياة الثقافية
**Reading in the Book "Cultural History of Algeria" by Abu al-Qasim
Saadallah Currents and Influences in Cultural Life**

حسن بربورة *

مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية جامعة يحي فارس المدينة، Barbora.hacen@univ-medea.dz

تاريخ الاستلام: 2024/10/ 11 تاريخ القبول: 2024/10/ 26 تاريخ النشر: 2025/01/ 10

ملخص:

تتناول الدراسة الأرضية التي قامت عليها الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، والتي رصدها المؤرخ أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي. فبعد سقوط دول المغرب العربي وإماراته الصغيرة، كان بنو زيان بتلمسان (الجزائر)، أقل تلك الإمارات سعةً وهيمنةً، لانحصارهم بين قوتين أكبر حجماً، ولأن قادتها لم يُشيدوا مركزاً ثقافياً، يُنافس الزيتونة، القرويين والأزهر. لكنّ الجزائر عوّضت هذا الضعف سياسياً في العهد العثماني، بعدما أصبحت قُطب الرّحى، ومركز الثّقل وسيّدة البحار، مُضافةً إليها ليبيا بعض الوقت، وتونس كلّ الوقت، بينما بقي المغرب يتخبّط في صراع عائلي شريفي، وبذلك رُسمت خريطة جديدة للمغرب العربي.

الكلمات الدالة: التيارات والمؤثرات؛ الحياة الثقافية؛ الجزائر؛ العهد العثماني.

Abstract:

The study deals with the ground on which cultural life was based in Algeria during the Ottoman era, which was monitored by the historian Abul-Qasim Saadallah in his book The Cultural History of Algeria. After the fall of the Arab Maghreb countries and its small emirates, the Banu Zayyan of Tlemcen (Algeria) was the least of these emirates in terms of capacity and dominance, because they were sandwiched between two forces that were larger in size, and because their leaders did not build a cultural center, competing with the Al-Zaytouna Mosque, Al-Qarawiyyin Mosque and Al-Azhar Mosque. However, Algeria compensated for this weakness politically during the Ottoman era, after it became the center of gravity and the master of the seas, in addition to Libya at times, and Tunisia at all times, while Morocco remained floundering in an honorable family conflict. Thus, a new map of the Arab Maghreb was drawn.

Keywords: Currents and Influences; Cultural Life; Algeria; Ottoman Era.

المؤلف المرسِل: حسن بربورة، البريد الإلكتروني: barbora.hacen@univ-medea.dz

مقدمة

إنّ دراسة تاريخ الجزائر الحديث يتطلّب أخذ فكرة عامّة عن مختلف جوانب الحياة السياسيّة، الاقتصاديّة، الاجتماعيّة والثقافيّة، وإذا كانت الكثير من الدراسات التي تناولت تاريخ الجزائر العثمانيّة، غالبًا ما ركّزت على الجوانب السياسيّة، ظلّت المواضيع الأخرى دومًا بحاجة إلى مزيدٍ من البحث والدراسة، ولعلنا نستثني هنا جهود جملة من الباحثين والمؤرّخين، على رأسهم المؤرّخ أبو القاسم سعد الله، الذي أدرك أهمية هذه الجوانب في فهم تاريخ الجزائر، فكان كتابه **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 16م إلى القرن 20م** تحفة نادرة، ألّم فيها بالوضع الثقافي في هذا العهد، في دلالة على أهميّة تلك الفترة التي حاول مؤرّخوها المدرسة الاستعماريّة تحوّلها، أو على الأقل فصلها عن تاريخ الجزائر.

ونحاول في هاته الدراسة إلقاء نظرة على جانب من هذا المؤلّف الهام والتّادر في تاريخ الجزائر، وعرض لأحد فصوله المهمّة "التّيارات والمؤثّرات"، ونطرح الإشكالية التّالية: ما أبرز التّيارات؟ وما أهم المؤثّرات في الحياة الثقافيّة في الجزائر خلال العهد العثماني التي رصدتها أبو القاسم سعد الله في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي"؟

1. تقديم المصدر

أبو القاسم (بلقاسم) بن أحمد بن علي بن محمد بن سعد بن مبارك بن علي جحيدر (سعد الله)¹، من مواليد 1927م² بضواحي قمار (وادي سوف) الجزائر، باحث ومؤرّخ، حفظ القرآن الكريم في سنّ مبكّرة، وأكمل تعليمه الأوّل في مسقط رأسه، حيث تلقّى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين، ثم انتقل سنة 1947م إلى الرّيتونة بتونس لمواصلة تعليمه، وحصل على شهادة الأهليّة بعد ست سنوات، فشهادة التّحصيل سنة 1954م³، تولى بعدها التدريس في مدرسة الثّبات بالحراش (الجزائر)، ثم مدرسة التّهديب، لينتقل في أكتوبر 1955م إلى جامعة القاهرة، وكتب رسالته للماجستير سنة 1960م بعنوان "محمد العيد آل خليفة رائد الشّعير الجزائري في العصر الحديث"، بعدها حصل على منحة للدراسة من جبهة التّحرير الوطني، لكنه توجّه قبل اتمام المناقشة إلى دراسة التّاريخ بجامعة مينيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكيّة، أين

حصل على شهادة الماجستير في التاريخ والعلوم السياسية سنة 1962م⁴، ثم الدكتوراة سنة 1965 في التاريخ بعد حصوله على منحة "فولبرايت"⁵، بعنوان (الحركة الوطنية الجزائرية) في أربعة مجلدات. عاد سعد الله إلى جامعة الجزائر سنة 1967م، حيث بدأ مشواره الأكاديمي، وتقلد مناصب ومسؤوليات عدّة، منها أستاذًا للتاريخ بجامعة الجزائر، كما شغل منصب أستاذ زائر في العديد من الجامعات العربية والأجنبية كجامعة آل البيت الأردن، جامعة ويسكنسن، أوكلير (أمريكا)⁶. لأبو القاسم سعد الله العديد من المؤلفات أهمها: تاريخ الجزائر الثقافي (10 أجزاء)، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (4 أجزاء)، الحركة الوطنية الجزائرية، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، كما حقق العديد من المؤلفات والمخطوطات منها: تاريخ العدواني، رحلة عبد الرزاق بن حمادوش⁷ "لسان المقال"، و"رسالة الغريب إلى الحبيب"، مختارات من الشعر العربي جمع المفتي أحمد بن عمار⁸، "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" للفيكون، كما ترجم لكثير من المؤرخين من بينهم: جون وولف (كتاب الجزائر وأوروبا)، دوقرامون (الجزائر في العهد العثماني)، هنري تشرشل (حياة الأمير عبد القادر)، وألف حول العديد من أعلام الجزائر، كرائد التجديد الإسلامي ابن العنابي، الطبيب الرحالة ابن حمادوش، القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني وغيرهم، كما له إبداعات وتأملات ذكر منها: تجارب في الأدب والرحلة، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، في الجدال الثقافي، قضايا شائكة، منطلقات فكرية، هموم حضارية وغيرها⁹.

أمّا كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10-14هـ، فهو مؤلف ضخم في عشرة أجزاء، يبحث في تيارات الثقافة، مؤثراتها، مؤسساتها، ظواهرها، ورجالها في العهد العثماني، له عدّة طبّعات، ويعتبر ثمرة جهد دام حوالي ربع قرن، لكشف مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور من جهة، ودحض افتراءات المستعمر الفرنسي الذي بثّ طيلة فترة احتلاله للجزائر بأنه لم يكن لأهلها ماضي سياسي ولا ثقافي ولا حضاري من جهة ثانية.

فمؤلف الكتاب كما يقول عنه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: "مشغوف إلى حدّ الافتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور"¹⁰، وقد بذل من جهده ووقته الكثير في سبيل إخراج هذا العمل الكبير للنور، من خلال الاعتماد على مصادر كثيرة ومتنوعة، وإخراجها

بأسلوب موسوعي، شمولي، وتحزّنة دقيقة حسب المواضيع في وقتٍ واحدٍ، كبديلٍ عن الدراسة الأحادية التي طغت على كتابة تاريخ الجزائر في الفترة القريبة التي تلت الاحتلال¹¹.

ويدرس الجزء الأوّل من الكتاب، العهد العثماني خلال القرن 9هـ/15م، باعتباره مرحلةً هامّةً في تطوّر الثّقافة التي ورثها العهد العثماني، بالتّطرّق ومن خلال ستة فُصولٍ كاملةٍ للتّواحي النّظريّة للتّاريخ الثّقافي: من تيارات، مؤثّرات، ظواهرٍ ومناهج، كما يتناول المؤسّسات ورجال التّصوّف، العلماء وعلاقتهم بالسلطة والشّعب، وهو خلال كل ذلك ليس جمعا للمادة العلميّة وخشّرها دون رأيٍ أو تمحيصٍ أو ترتيبٍ، بل يدرس الظّواهر ويحلّلها ويعلّلها، كما يدرس الإنتاج ويصنّفه ويقيّمه، ويُنَاقِشُ المؤلّفين آراءهم ومواقفهم، دون تقدّيسٍ أودغدغةٍ للمشاعر، على أنّه تجدر الملاحظة إلى أنّ بعض الآثار لم يتمكن المؤرّخ من الإطّلاع عليها، والقراءة عنها، فاكتمى بوضعها في مكانها من فصول الكتاب انتظارا للكشف عنها.

بيبليوغرافيا ضمّ الجزء الأوّل، بعد كل من (الإهداء، المقدّمة، شكرٌ واعترافٌ، حول المصادر، تنبيهاتٌ) ستّة فصولٍ هي بالترتيب: الفصل الأوّل (تراث القرن 9هـ/15م)، ويشمل المؤثّرات في الحياة الثّقافيّة، بين العلماء والأُمراء، التّاريخ والسّير، الأدب واللّغة، التّصوّف وعِلْمُ الكَلَام، مع تقديم نماذج: (النّقاسي، الثّعالي¹²، أحمد الجزائري، ابن زكري، السّنوسي، الحوضي، التّازي، الفراوسني والمراي الصّوفيّة، البسكري، بركات القسنطيني، أبو عصيدة البجائي)، العلوم والمنطق، القراءات والتّفسير والفقه: أحمد الونشريسي، كتاب الافتتاح للميلي القسنطيني.

الفصل الثّاني (التّيارات والمؤثّرات) ويشمل: العلاقات بين الجزائريين والعثمانيّين، المجتمع الجزائري، دور المدن، الحياة الدينيّة، الأدبيّة والفنيّة، الجهاد أو الاحساس المشترك، الثّورات ضدّ العثمانيّين، ويعالج الفصل الثّالث المؤسّسات الثّقافيّة في الجزائر خلال العهد العثماني من: أوقافٍ، مَسَاجِدَ، زَوَايا ورباطاتٍ، المدارس والمعاهد العليا، المكتبات، أمّا الفصل الرّابع (التّعليم ورجاله) فيتناول بدايةً سياسة التّعليم، ثم وسائله (المعلّمون وأجورهم، التّلاميذ، تعليم المرأة، الكتب)، كما يتطرّق للمناهج من الابتدائي إلى الثّانوي، المواد المدروسة، حوافز التّعليم وأهدافه، وتقديمٌ لنماذج كبار المدرّسين في الجزائر، ويتطرّق الفصل الخامس للعلماء، من خلال تحديد مكانتهم ووظائفهم، تنافس العلماء وأخلاقهم، إضافةً لعلاقاتهم بالباشاوات

والبايات، كما يتناول مسألة هجرة العلماء، وموقفهم من بعض قضايا عصرهم، وتناول الفصل السادس المرباطون والطرق الصوفية من خلال وصف حركة التصوف عشية العهد العثماني، وموقف العثمانيين من رجال التصوف، وحالة التصوف خلال العهد العثماني، سلوك بعض المتصوفة، وتقديم نماذج لبعض المرباطين وطرقهم الصوفية.

2. عرض ونقد لمصادر الدراسة

اعتمد المؤلف في كتابه (تاريخ الجزائر الثقافي) مصادر عديدة ومتنوعة، كلّفه البحث عنها التّقلّ بين مكّتابات الجزائر العامّة والخاصّة مثل: مكتبة زاوية طولقة، جامع البرواقية، مكتبة الشيخ المهدي البوعبدلي، والسّفر إلى عددٍ من مكّتابات الدول العربيّة والأجنبيّة في تونس، المغرب، القاهرة، سوريا، فرنسا، بريطانيا والولايات المتّحدة وغيرها، ومع ذلك يقول المؤلّف أنّ العهد العثماني، وفي جميع مظاهره ونواحيه ما يزال غير مدروسٍ بشكلٍ كافٍ، حيث لم يؤلّف علماء الجزائر أثناءه تأليفاً يغطي جوانبه، ويدرس ظواهره، ويُسجّل أحداثه، إلا بعضاً من أعمال أبي راس النّاصري، ابن المفتي، ابن حمادوش، الورتلاني، التلمساني والمشرقي وأمثالهم.

ومن المصادر التي اعتمدها الكاتب في فصله الثّاني نذكر: مصادر ومراجع عربية مخطوطة ومطبوعة، وعددها (27 مصدراً) منها: أبي علي الحسن إبراهيم المريني "عنوان الأخبار فيما مرّ على بجاية"، ويُسلّط الضّوء على ظروف وملابسات احتلال الاسبان لبجاية سنة 1510م برؤية جزائريّة، حيث يتناول تاريخ بجاية في عهد الاسبان وكيف انتقلت إلى أيدي العثمانيين، والحروب التي دارت هناك بين الفريقين، وقد اعتبره الضّابط الفرنسي "شارل فيرو" بعد أن استنسخ منه عدّة نُسخٍ عند أحد علماء بني يعلى ببجاية من الكتب الهامة التي تُصحّح المعلومات المأخوذة عن مارمول والحسن الوزان (ليون الافريقي)، واعتمد عليه في كتاباته في المجلة الافريقيّة.

أيضاً عبد الرزاق ابن حمادوش (رحلة ابن حمادوش)، المسماة: "لسان المقال في البناء عن النسب والحسب والحال"، وهو مخطوط في أدب الرحلة، حقّقه المؤلّف فيما بعد، حوى تنبيه للمحقّق أشار فيه إلى النسخة المخطوطة الوحيدة من الجزء الثّاني لهذه الرحلة، وثلاثة أقسامٍ تناولت تقديم المؤلّف ابن حمادوش ورحلته ابتداءً من جولة في عصر المؤلّف، مُعزّجاً على وصف المخطوطة المتواجدة في الخزنة العامّة بالرباط،

وطريقته في التّحقيق، والمصادر المعتمدة، وقيمة الرحلة في حدّ ذاتها، أمّا القسم الثاني فتناول متن الرحلة، فيما خصّص القسم الثّالث للمصادر والفهارس والجداول والرسوم، بالإضافة إلى فهرس الموضوعات.

أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي "نّغر الجُماني في ابتسام النّغر الوهراني"، وفيه شهادة عيان، ووصفٌ لحالة البلاد وتدهورها في أواخر العهد العثماني، أيضًا "رحلة الورتلاني" للحسين بن محمد السعيد الورتلاني (1713 - 1780م)، وتعتبر واحدةً من رحلات المغاربة خلال القرن 18م، والتي أرادها صاحبها حجازيةً وعلميّةً، فجمعت بين أدب الرحلة والكتابة الجغرافيّة وتدوين التّاريخ.

نذكر أيضًا من بين المصادر ما ألّفه أبو راس النّاصري¹³ "الحلّل السّندسيّة فيما جرى بالعدوة الأندلسيّة"، ابن العنابي (ت1267) "السّعي المحمود في نظام الجنود"، عبد الكريم الفكّون "منشور الهداية في حال من ادّعى العلم والولاية"، ابن عمار (نحلة اللبيب)، الشّريف أحمد الزهار "ذخائر المغرب العربي، مذكرات أحمد الشّريف الزّهّار"، تحقيق أحمد توفيق المدني"، أحمد بن ساسي البوني "المجالس"، أبو راس النّاصري "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"، الجامعي "مخطوط شرح الحلفاوية"، التّمغروطي "النّفحة المسكيّة"، ترجمة هنري ديك كاستري، أبو حامد المشرفي "مخطوط باقوتة النّسب الوهّاجة"، وفيه ترجمة للعالم وشيخ الزاوية محمد بن علي المجاجي اهللول، أبا حامد المشرفي "مخطوط ذخيرة الأواخر والأول"، أبو العبّاس أحمد بن خالد النّاصري السّلاوي (1835-1897م) "الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى"، مسلم ابن عبد القادر "أنيس الغريب والمسافر"، فرانسيس نايت "سبع سنواتٍ تحت الحُكم التّركي في الجزائر"، الحسن الوزان (ليون الافريقي) "وصف افريقية"، ييري رايس العثماني "الكتاب البحري"، ترجمة مانتران، وهو عبارةٌ عن وصفٍ من خلال رحلةٍ بحريّةٍ في شرق الجزائر وتونس، ابن حمادوش "الرحلة"، ابن زُرقة "الرحلة القمريّة"، محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي "نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان"، العياشي "الرحلة"، الدرعي "الرحلة"، عبد الله كنون "أبو القاسم الرّياني"، رشيد الدوكالي "مساجد مدينة الجزائر في العهد العثماني".

وفيما يخصّ المصادر والمراجع الأجنبيّة (وعدها عشرة) نذكر: مذكرات قنصل أمريكا في تونس اليهودي مردخاي نوا "رحلات في انكلترا، فرنسا، اسبانيا وشمال افريقية سنوات 1813-1815م"،

مورقان "التاريخ الكامل"، جوزيف بيتز "حقائق"، شارل بورتاد "حياة ورسائل جول بارلو"، ديفغو دي هايدو الاسباني "ملوك الجزائر"، ترجمة دوغرامون، دابر Dapper "وصف افريقيا"، ألفريد بيل "الاسلام في بربريا"، هاميلتون جب وهارولد بون "المجتمع الاسلامي والغرب"، مارسيل اميرت "الجزائر في عهد الأمير عبد القادر"، برنارد لويس "استنبول وحضارة الخلافة الاسلامية".

أمّا المقالات العلميّة (وعدها تسعة) فنذكر منها: مقال بير بوايه "هل للأتراك سياسة دينيّة في الجزائر"، (مجلة الغرب الاسلامي)، 1966م، مقال حسن خوجة "دور الأعيان في أخبار مدينة وهران"، ترجمه روسو، (جريدة مونتور ألجيريان)، 1855م، (ع ع 1395-1398)، مقال لابن سوري: "تاريخ باشاوات الجزائر"، (المجلة الاسيوية)، 1922م، "مذكرات ناثانيل كاتنق الأمريكي" في (المجلة التاريخية الأمريكية)، 1860م، مقال فرنسيسكو خيمينيث الاسباني (المجلة التاريخية المغربية)، 1978م، ترجمة ونشر ميكال دي ايبالزا والهادي الوسلاقي، مقال بروسار في (المجلة الافريقية)، مقال شارل فيرو "مقدمة كتاب العدواني"، (مجلة روكاي)، 1868م، مقال بيرنارد لويس "حملة مراد راييس إلى ايسلندا"، (مجلة الغرب الاسلامي)، 1973م، ومقال جوزيف بيتز "حقائق عن الدين الإسلامي"، ومن خلال هذا الاستعراض السّريع لأهمّ مصادر هذا الفصل، نلاحظ أنّها ولا شكّ مصادرٌ غنيّة، متنوّعة، وتُغطّي الفترة التي اهتمّ الكاتب بدراستها.

3. الوضع الثقافي في الجزائر قبل التّواجد العثماني

يعتبر إنتاج القرن 15م خاتمة لإنتاج فترة امتدّت لثلاث قرون، مبتدئة بعهد الموحّدين، وقد تميّز بأنّه أوفر إنتاج الجزائر الثقافي، ومن أخصب عهودها بأسماء العلّماء والمؤلّفات، حيث أنّ عدد العلّماء المتبحّرين خلال القرن 9هـ/15م وحده، يفوق أعدادهم في القرون اللاحقة مُتفرّقة، لا سيما القرن 10هـ/16م الذي شهد نقصاً كبيراً في عدد العلّماء والمؤلّفات بسبب كثرة الحروب والهجرة الواسعة للعلّماء¹⁴.

ويمكن حصر أهمّ المؤثرات في الحياة الثقافيّة قبل ظهور العثمانيين في الجزائر في جملة من العناصر يتقدّمها الوضع السّياسي المضطرب، حيث كانت الحدود السياسيّة لجزائر القرن 15م غير ثابتة، حتّى أنّ كلمة (الجزائر) لم تكن تُطلّق سوى على السّاحل الصّغير قليل الأهميّة، بل إنّ عبارة (المغرب الأوسط) لم تكن تعني حدود الجزائر الحاليّة، فالمغرب العربي آنذاك كان تحت نفوذ ثلاث دول رئيسيّة، المرينيون (بالمغرب

الأقصى حالياً)، الزّيانيون بالغرب الجزائري وقاعدتهم تلمسان، والحفصيون (في تونس حالياً وجزء من الشرق الجزائري)، أمّا وسط القطر الجزائري فكان منطقة عازلة بين الحفصيين والزّيانيين، ومن ثمة كان منطقة صراعٍ دائمٍ بين القوتين، ولذلك ظهرت فيه إماراتٌ محليةٌ صغيرة، ليس هذا فحسب، بل وصل نفوذ المرينيين أحياناً إلى تونس والزّاب وقسنطينة، كما وصلت جيوش الحفصيين إلى المدينة ومليانة وتلمسان¹⁵. ويُضاف إلى هذا التّطاحن الاقليمي، تطاحنٌ عائليٌّ مريزٌ وطويل، دون أن ننسى التّدخلات الأجنبية، وكذا الاحتلال البرتغالي والاسباني للتّغور السّاحليّة، وحتى للمدن الداخليّة، في إطار السّعي للضّغط على مسلمي الأندلس، وهو ما زاد من هجرة الأندلسيّين¹⁶ نحو المغرب العربي، وقلب الميزان الاقتصادي والاجتماعي والسّياسي فيه¹⁷.

وقد كان لهاته الاضطرابات السّياسيّة أثرها على الحياة الثقافيّة، فَهَاجَرَ بعض العلماء إلى المشرق والمغرب¹⁸، ورَبَطَ آخرون مصيرهم بالأمرء كابن القنفذ، والشّاعر أحمد الخلوف القسنطيني، وانعزل بعضهم مُفضّلاً عيشة الزّهْد، من أمثال عبد الرحمن الثّعالي، وتلميذه أحمد بن عبد الله الزّواوي، ومعاصرها محمد بن يوسف السّنوسي¹⁹.

لكن ما سبق لا ينفي نمو بعض المراكز الروحيّة، من مساجد ومدارس ببعض المدن الجزائريّة، حيث اشتهرت بعض العائلات بالعلم والتّأليف والتّدريس، أو بالزّهْد والتّصوّف، كعائلة المقرّي²⁰ والعقباني في تلمسان، وعائلة ابن باديس والقنفذ في قسنطينة، وعائلة المنجلاقي والمشدالي في بجاية، وعائلة ابن السّكات بالجزائر، كما اشتهرت مازونة بعددٍ من الفُقهاء أمثال موسى بن عيسى وابنه يحيى، واشتهرت بسكرة بأبي زيان ناصر بن مزني، وعيسى بن سلامة، وإبي محمد عبد الله وغيرهم من العلماء في كثيرٍ من مدن الجزائر²¹.

4. التّيارات والمؤثرات في الحياة الثقافيّة في الجزائر خلال العهد العثماني

يستعرض المؤرخ سعد الله واقع الحياة الثقافيّة في العهد العثماني، دون الإشارة إلى أهم المراحل السّياسيّة التي مرّ بها الحُكْمُ العثماني التي دَرَجَ بعض الكُتّاب الفرنسيين تسميتها، وتبعهم في ذلك الكُتّاب الجزائريّون، عهد البيلربايات (1519-1587م)²²، فعهد الباشاوات إلى غاية 1659م، ثم عهد

الأغاوت إلى حوالي 1672م، وأخيراً عهد الدّايّات حتى سنة 1830م، وهي في الحقيقة مراحل لا معنى لها، إذ أنّه لم يحدث خلال العهود المذكورة ما غيّر من سِمَةِ الحُكم نحو الجزائريين، بقدر ما كانت تعني التّغيير في علاقة الولاة بالسلطان، وقد خصّص المؤلف لهذا الفصل (التيارات والمؤثرات) ما يقرب من مائة صفحة، بدايةً في القسم الأول بدراسة (العلاقات بين الجزائريين والعثمانيين)، ليتناول في قسم آخر المجتمع الجزائري وفتاته، ويتطرّق خلال ذلك إلى العادات الاجتماعية السائدة، الدّوق العام، الحالة الصّحيّة، الجوّاح ونتائجها السيئة التي خلّفتها في الأرواح وفي الحياة الماديّة، ويتناول كذلك العوامل الخارجيّة المؤثّرة في الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة في الجزائر، والتي لخصّها في: هجرة الأندلسيين، الحكم العثماني، والتّواجد المسيحي-اليهودي، وإن كان أقلّهم تأثيراً²³.

كما يدرس المؤلف المدن أيضاً، ودورها في حياة السّكّان وتطوّرها الاقتصادي والعمراني نتيجة الوحدة السياسيّة للبلاد، وفي القسم الرابع يدرس المؤلف الحياة الدينيّة، الأدبيّة والفنيّة، هذه النّاحية التي كانت قد بدأت تعاني من التّدهور والانحطاط حتى قبل استيلاء العثمانيين على السّلطة بقرون، وإذا كان العثمانيون قد ساهموا سلبيّاً في الحياة الثقافيّة في الجزائر، فإنّ دورهم الجهادي لا يمكن إنكاره، وهذا ما تناوله المؤلف تحت عنوان (الجهاد أو الإحساس المشترك)، فلقد أنقذ العثمانيون بتدخلهم في بداية القرن 10هـ/16م الجزائر والمغرب الإسلامي من الاحتلال الأجنبي المؤكّد، وكانوا بذلك غزاة مجاهدين، تحالفوا مع إخوانهم في الجزائر لصدّ العدوان الصّليبي، وإقامة حُكم إسلامي طيلة ثلاثة قرون، إلّا أنّهم رغم ذلك - يقول سعد الله- جعلوا الحكم (تركياً) وليس إسلامياً، ولم يُشركوا الجزائريين معهم فيه، ما مهّد الأمر لقيام ثورات عديدة، مُتعدّدة الوسائل والغايات، وبدوافع مختلفة.

5. 1. العلاقات بين الجزائريين والعثمانيين

يعالج المؤلف في هذا المبحث العلاقة بين الجزائريين والعثمانيين، ويبدأ بالتّسميات التي أطلقها الجزائريون على السّلطة العثمانيّة الحاكمة بالجزائر، فهم الأوجاق، الأعلاج، أو (الأترك) كما يُسمّوهم الكتّاب الجزائريين المعاصرين لهم كابن مريم، وابن سليمان والورتلاني، وهم (العجم) كما يصفهم عبد الكريم الفكون وغيره، وهي كلها تسميات غير سليمة، والأصح أن تُطلق عليهم (العثمانيون)، ذلك أنّهم كانوا أجناساً مختلفة اللّسان والعرق والجغرافيّة: من أناضوليا، روميليا، ومن الأقاليم العربيّة، ومن البلقان، وبقية

أجزاء أوروبا، ومن أصولٍ مختلفةٍ: تركيّة، عربيّة، صُقلبيّة، لاتينيّة وإغريقيّة وهلمّ جرّاً، لكنها تتّفق في الولاء للإسلام والسُّلطان²⁴.

وقد كانت الرابطة بين هذه العناصر والجزائريين هي الإسلام والخلافة، أو العقيدة الإسلاميّة، ثم الولاء للسُّلطان، لكنّ الحُكّام العثمانيّين لم يحترموا هذا المبدأ، وجعلوا الحُكمَ (تركياً) وليس (إسلامياً)، ولم يُشركُوا الجزائريين معهم فيه، بل احتكروه لأنفسهم طيلة ذلك التّاريخ، وجعلوا أنفسهم أوصياءَ على شعبٍ يفوقهم عدداً وحضارةً وشجاعةً، واستبدُّوا بالسُّلطة، واستندلوا واستعلوا على السُّكّان²⁵.

لكن سعد الله يعود في مكان آخر ويقول: "إنّ العثمانيين قد دخلوا الجزائر أساساً بطلبٍ من أهلها، وربطوا مصيرهم في الغالب بمصير أهل البلاد وتحالفوا معهم.. تحالفاً شديداً سياسياً وعسكرياً"²⁶، ويضيف: "إنّ الجزائر الحاليّة في الواقع قد تشكّلت تقريباً خلال هذه الفترة سياسياً واجتماعياً وشعورياً، ففكرة الدّولة ظهرت خلال هذه الفترة بكل مُقوّماتها من حُكمٍ مركزيّ وحُكّام أقاليم، وإدارةٍ محليّةٍ واقتصادٍ متكاملٍ، ودبلوماسيةٍ نشطةٍ تشمل توقيع المعاهدات، وفتح القنصليات.. ومراسيم سياديّة عديدة"²⁷.

لكن ظلّ الحُكم العسكري هو الظّاهرة المميّزة للحُكم العثماني في الجزائر، بل هو الظّاهرة المميّزة لهذا الحُكم في جميع أنحاء الدولة العثمانيّة، فقد كان الجهاد البحري هو الباعث على وجودهم على شواطئ شمال إفريقيا، وبالتالي فالمظهر العسكري (الجهادي)، واستمرار التّهديد الأجنبي طَبَعَا الحُكم العثماني على طوْلِهِ بالخوف الدّائم من الخارج، والاستبداد المطلق بالداخل، من حيث شكل الحُكم نفسه، أو علاقته بالسُّكّان، أو حتى الأحكام الصّادرة عنه، وكان لهذا وذاك أثرُهُ في الحياة الثقافيّة، وربما يمكن القول أنّه كان في نفس الوقت مصدر تحالفٍ بين الجزائريين والعثمانيين أيضاً، لأنّه كان خطراً على كِلَا الطّرفين²⁸.

5. 2. تركيبة المجتمع الجزائري

تتمثل تركيبة المجتمع الجزائري في العهد العثماني في أربع فئات: العثمانيون، الكراغلة، الحضر، وعُمال المدن. فالعثمانيون يأتون كطبقةٍ في رأس الهرم، تحتكر السُّلطة، فمنهم الباشاوات، الوزراء، الأغاوات، البايات، رؤوساء البحر (الرياس)، والأغاوات، كما كان منهم أعضاء الدّيوان، وتتمتّع هذه الفئة بجميع الامتيازات، لكن شاع فيها الفساد، الرشوة، الجور، الانحراف، الظُّلم والاستغلال²⁹. أمّا فئة الكراغلة

والتي ظهرت في الجزائر بعد عدّة أجيالٍ من الحُكم العثماني، فهم من أمّهاتِ جزائريّاتٍ، وكانوا يطمحون للمراتب العليا، إلّا أنّ محاولاتهم باءت بالفشل بسبب عزم العثمانيين على إبعاد العنصر الأهلي عن مقاليد السُّلطة³⁰، ويأتي الحضر في المرتبة الثالثة، وهم سُكَّان المدن من علماءٍ وُجَّارٍ، وأصحاب المهن والصَّنائع والكتّاب والإداريين، وكانوا يُشكِّلون أهميّةً اجتماعيّةً واقتصاديّةً، لكن رغم ذلك ظلُّوا فئةً محرومةً من أيّ دورٍ سياسي، ما عدا التأثير من حيث نفوذهم الاقتصادي، أو الرُّوحي³¹، وتأتي أخيراً الفئة الرَّابعة كعُمال المدن من (زواوة، بسكرة وميزاب)، وكذا كل القادمين من المناطق الجبليّة المجاورة للعاصمة، وحتى من الزُّنوج والأسرى المسيحيّين³².

وخلالاً لما كان يُشاع أنّ المجتمع الجزائري مجتمع الرُّجل، فإنّ المرأة لعبت دوراً أساسياً في جميع الميادين³³، ولئن كان المؤلف قد أسهب في الحديث عن دور المرأة البارز في الحياة الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة، لكننا لم نلمس في هذا القسم ذكر دورٍ بارزٍ لها في الحياة السياسيّة أو الثقافيّة، كما صرّح هو بنفسه بذلك: "حقّاً أنّها لم تكن عضوةً في الدِّيوان (المرأة) ولا موظّفةً ساميةً في إدارات الدّولة، ولكنها كثيراً ما تدخّلت في توجيه القرارات، والتأثير على أزواجهن في اتّخاذ مواقف معيّنة"³⁴.

كما لا يفوت سعد الله أن يتناول الحالة الصحيّة للمجتمع الجزائري، ويَنهِّمُ العثمانيين بقلة اهتمامهم بالحياة الصحيّة للسُّكَّان، باعتبار أنّ لهم أطباءهم الأجانب الخاصّين، في حين كانت بقية الشعب تعاني الآلام والأمراض، فلا مصحّاتٍ ولا مستشفياتٍ، لذلك اعتمد أغلبهم على الطّب التقليدي³⁵. ويُعدِّد المؤلف بعض الكوارث الطبيعيّة والصحيّة التي اجتاحت المجتمع من طاعونٍ، زلزلٍ، جفافٍ، مجاعاتٍ، وانتشارٍ للجُراد، والتي خلفت نتائج سيئةً في الأرواح، وفي الحياة الماديّة³⁶.

أمّا العوامل الخارجيّة المؤثرة في الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة في الجزائر، فيلخّصها سعد الله في ثلاثٍ: هجرة الأندلسيّين التي بدأت خلال القرن 9هـ/15م، وازدادت خلال القرن 10هـ/16م، فارتقت بوجودهم في الجزائر العِمَارَةُ، صناعة الطّب، الموسيقى، الزراعة، الصَّنائع، الحِرَف، التِّجارة، والتعليم، والخطُّ، والوراقة وصناعة الكتاب³⁷.

لكن سعد الله وخلال هذا السرد لتأثير الأندلسيّين، لا يُقدِّم نماذج حيّة -على الأقل في هذا الجزء- وربما يعود الأمر لصعوبة الحصول على كثيرٍ من المصادر، لأنّ فترة الاستعمار الفرنسي التي تلت فترة

الحكم العثماني، كانت قد قُضت على كُلِّ ما من شأنه أن يكون مصدر وشاهد إثباتٍ على ثراء وتنوع الثقافة الجزائرية، فكل الصناديق المتعلقة بالأدب والفنون والتعليم كانت قد ضاعت من أرشيفات العهد العثماني التي كان يملكها الفرنسيون، كما ضاعت المخطوطات التي تركها علماء الجزائر³⁸، كذلك ضاعت كثيرٌ من الوثائق الأساسية لدراسة الحياة الثقافية أثناء نيش وبعثرة المكتبات الخاصة، وإحراق المكتبة العامة، وحتى أثناء اندلاع الثورة التحريرية 1954-1962م³⁹.

أمّا العامل الثاني المؤثر في الحياة الثقافية فهو الحكم العثماني نفسه، وأوّل تأثير له هو ربط المجتمع الجزائري بالمجتمع الشرقي، من عادات وتقاليد، ومأكّل وملبسٍ وصنائعٍ وغيرها، إضافةً لإدخال المذهب الحنفي، والطرق الصوفية، كما أثّروا في العمارة كبناء المساجد والأضرحة، وفي الموسيقى والخط، وفي اللغة ونحو ذلك⁴⁰.

ويأتي كأقل العوامل تأثيراً هو التواجد المسيحي واليهودي، حيث شهدت الجزائر العثمانية نشاطاً أوروبياً بحرياً كبيراً على سواحلها، وفي مُدنها الرئيسية، ممّا سمح بتبادل التجارب والمهارات العسكرية، وبناء السفن، وحماية المراسي، كما ظهر التّجار الأوربيون، إضافةً للقناصل والأسرى المسيحيين الذين كانوا أحياناً يُقدّرون بالآلاف، وفيهم النساء والأطفال وأصحاب المهارات والأدباء، ومنهم من اعتنق الإسلام، وكُلُّ هؤلاء الأوربيين ولا شك أثّروا في الحياة الاجتماعية الجزائرية، كُلاً حسب مكانته وإمكاناته⁴¹، هذا دون أن ننسى طبعاً الجالية اليهودية التي كان وجودها قوياً خلال هذا العهد خاصّةً في المدن، حيث كانوا يشتغلون في الصنائع الدقيقة والتمينة كالخياطة والصباغة، إضافةً للتجارة والصّرافة ونحوها، وكان منهم حتى من أثّر في الحياة السياسية⁴²، لكن رغم كُلِّ هذه العوامل، فقد ظلّ المجتمع الجزائري محافظاً على قيمه العربية الإسلامية.

5. 3. دور المدن

بالنسبة للمدن في الجزائر العثمانية، ودورها في حياة السّكان، وتطوّرها الاقتصادي والعمراني، يختار لنا المؤلف نماذج كثيرة، لعلّ أهمها مدينة الجزائر العاصمة التي تحوّلت من مرفأ صغيرٍ يلجأ إليه الصّيادون، إلى مرسى كبيرٍ يستقبل مختلف السفن والبضائع، كما تحوّلت من قريةٍ مجهولةٍ إلى عاصمةٍ للقُطر كُلِّه، كثيرة

العمران وافرّة السُّكَّان، وهذا بفضل موقعها، كونها مدينةً بحريّةً تقع على منافذ جبليةٍ تؤدي لمختلف الاتجاهات، وتحصينها الطبيعي بالجزر أمامها، وبجبل "بوزريعة" الذي يحميها من جهة الجنوب الغربي، ووادي الحراش شرقاً، إضافةً إلى موقعها عند سهل المتيجة الغني الواسع، ما أهلها أن تفرض سُلطانها بسهولةٍ على الجهات الثلاث⁴³.

يُحدِّثنا الكاتب أيضاً عن البدايات الأولى للحُكم العثماني في مدينة الجزائر بفضل جهود كُلٍّ من عُروج وخير الدين بربوسا، بعد تلبيتهما لنداء أهالي الجزائر من أجل طرد الأسبان، لنتهيأ الظروف لهما بعد ذلك في إقامة جهاز حُكمٍ في المدينة، وجعلها عاصمةً للنشاط العثماني الذي فرض سيطرته تدريجياً على مناطق أخرى، كتلمسان وقسنطينة، بل وحتى جعلها مُنطلقاً لمحاولات الاستيلاء على تونس وفاس، ولم يحل القرن 10هـ/16م حتى أصبحت الجزائر تقريباً في قبضة العثمانيين باستثناء وهران، ومن مدينة الجزائر كانت تنطلق الهجومات على أوربا، حتى أصبحت مركزاً للربح في نظر الأوربيين، كما يصفها الفرنسي دوغرامى وهو في رحلة رسمية نحو القسطنطينية سنة 1619م: "مدينة الجزائر .. ذلك السُّوط المُسلَّط على العالم المسيحي .. إنَّها رُعبُ أوربا، ولِجأُ إيطاليا وإسبانيا، وصاحبة الأمر في الجُزُر"⁴⁴، فقد أطلق الأوربيون على مدينة الجزائر أسماءً عديدةً تدلُّ على الخوف والكراهية، والاحترام أيضاً: فهي جَلَّادة المسيحية، وعُشُّ القرصنة، أمّا عند المسلمين فهي الجزائر الحميمة، البيضاء، المجاهدة، والمحروسة⁴⁵.

ومدينة الجزائر في الفترة السابقة للحُكم العثماني لم تكن خاليةً من العمران، وهي حتماً كما وصفها أحمد الزواوي الجزائري⁴⁶ في منظومته المشهورة (الجزائرية): كانت هنيئة العيش، وافرّة أسباب الرّاحة والعافية، عاش فيها العديد من العلماء أمثال: عبد الرحمان السطاح، وأحمد بن هلال العروضي، وعبد الله بن السكات، ومحمد القلعي، وأبي البركات الباروني، وعبد الرحمان الثعالبي⁴⁷، أمّا في العهد العثماني فقد أصبحت مدينةً دوليةً (كوزموبوليتان)، فسكَّانها كانوا من مختلف الأجناس، والأديان واللغات، وهي مفتوحةٌ للتيارات الخارجية إلى حدٍّ كبيرٍ.

ومن نماذج مدن الجزائر أيضاً "قسطنطينة"، التي تأتي بعد العاصمة أهميّةً في العهد العثماني، بحكم أنَّ وهران ظلَّت تحت الحكم الإسباني إلى غاية 1205هـ، وفي ظلِّ تراجع دور تلمسان، التي فقدت كثيراً من سُمعتها وقيمتها التي كانت تتمتع بها في القرنين 14-15م، إضافةً إلى ذلك فقد لعب موقع قسنطينة

الدّاخلي المحصّن دورًا هامًا في شُهرتها، ولُيعدها أيضًا عن العاصمة، ما جعل حُكّامها شبه مُستقلّين⁴⁸. ويمكن القول ومن خلال دراسة المؤلّف لبعض المدن الرئيسيّة والإقليميّة كعنابة، بجاية، بسكرة، مستغانم، تنس، شرشال، مليانة، وهران، معسكر، مازونة، أنّ المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني كان مجتمعًا مدنيًا، ولعبت المدينة دورًا بارزًا في حياة السُكّان، والأكيد أنّ الوحدة السياسيّة للبلاد هي من جعلت الناس يخرجون من طُور القبيلة والعرش والدُّور، إلى طور المدينة والتّعايش السُكّاني المتكامل⁴⁹، لكنّ ذلك كله لا يعني أنّ المجتمع الزراعي الاقتصادي انتهى في الجزائر خلال العهد العثماني⁵⁰.

5. 4. الحياة الدينيّة، الأدبيّة والعلميّة

يعتبر موضوع الحياة الدينيّة، الأدبيّة والفنيّة في صميم الحياة الثقافيّة في الجزائر العثمانيّة، وجزءًا مهمًا منها، هذه النّاحية التي كانت قد بدأت تعاني من التّدهور والانحطاط حتى قبل استيلاء العثمانيّين على السّلطة بقرون، فالأتراك - كما يشير المؤلّف - ليسوا مسؤولين على تدهور الثّقافة الإسلاميّة، ولا على ظهور التّصوّف المنحرف، لكنهم حتمًا ونتيجة سياساتهم الخاطئة ساهموا في نشر التّصوّف الخرافي، والانحطاط الثّقافي⁵¹.

فحُكّام الجزائر حقيقةً دافعوا عن الدّين الإسلامي، وشجّعوا تيّار التّصوّف في البلاد، وساهموا في بناء الزّوايا والمساجد والكتاتيب، لكنهم بالمقابل لم يؤسّسوا جامعةً كالقرويين أو الأزهر أو الزّيتونة تَبَثُّ العلم، وتُخرّج العلماء والكتّاب، وتحفظ اللّغة وتُربيّ العقل، ما جعل معظم علماء الجزائر يتكوّنون خارج بلادهم، وكثيرٌ منهم كانوا لا يعودون أصلًا، ثم إنّ هؤلاء (الأعلاج) لم يكونوا يتكلّمون لغة البلاد، ولا يتدوّقون أدبها، ولا يقرأون كُتُبها، ولا يتصلّون بعلمائها، فهُم لم يعقدوا المجالس العلميّة والمناظرات، كما كان يفعل قبلهم أمراء بني زيّان، وهي التي كانت تشجّد الهَمَمَ، ويتنافس فيها العلماء، وتبرز فيها القضايا الفكرية، والخلافات المذهبيّة⁵².

ومع ذلك فقد أنتج الجزائريون تراثًا أدبيًا راقيًا نسبيًا، شعرًا ونثرًا، وهذا رغم افتقاره لوحدة الأسلوب والتّوجّه⁵³، غير أنّ أكثر العلوم المتداولة في الجزائر آنذاك لم تكن تتعدّى العلوم الثّقليّة من علوم القرآن، وما

يُلازمها من علوم التفسير والقراءات، وفقه العبادات والمعاملات، إضافة إلى ما تدعوا الحاجة إلى إضافتها إليها، كعلوم اللغة، وبعض المنطق، أمّا العلوم العقلية فتكاد تنعدم⁵⁴.

وفنيّا كان التأثير العثماني واضحاً، فرغم وجود الموسيقى المحلية والأندلسية، فإنّ العثمانيين أدخلوا آلاهم الموسيقية ونغماتهم، ودوّقهم في الطرب، حيث كثرت المقاهي والحفلات الشعبية والرسمة التي تُعرّف فيها أنواع الموسيقى الثلاثة المختلفة، كما ارتقت العمارة، وامتزج فيها الذوق العثماني الشرقي بالذوق المحلي الذي يستخدم الرّحام والزليج الذي ظهر في المساجد، القباب، القلاع، القصور، والمنازل، كما تطوّرت الفنون الشعبية من طرزٍ وصياغةٍ وزخرفةٍ النسيج كالزّراي وترصيع الآلات والتّخف⁵⁵.

5. 5. الجهاد أو الإحساس المشترك

إذا كان العثمانيون قد ساهموا سلباً في الحياة الثقافية في الجزائر، فإنّ دورهم الجهادي لا يمكن إنكاره، وهذا ما تناوله المؤلف تحت عنوان الجهاد أو الإحساس المشترك، ذلك أنّ أهمّ ميزة للعهد العثماني في الجزائر هي استمرار فكرة الجهاد⁵⁶، فلقد أنقذ العثمانيون بتدخلهم في بداية القرن 10هـ/16م الجزائر والمغرب الإسلامي من الاحتلال الأجنبي المؤكّد، وكانوا بذلك غزاة مجاهدين، تحالفوا مع إخوانهم في الجزائر وحتى مع الأندلسيين لصدّ العدوان الصليبي، سواءً من خلال الجهاد البحري العام (القرصنة)، أو الجهاد البري الخاص، والموجّه ضدّ اسبانيا بالذات في اقليم الغرب خاصّة، حيث أنّ العثمانيين كانوا قد أجبروا اسبانيا على الخروج من جميع النقاط الساحلية التي احتلوها، ما عدا وهران التي بقيت إلى وقتٍ متأخّر (1205هـ)، بسبب تحالف الاسبان مع بني زيان إلى غاية استيلاء العثمانيين على تلمسان، ثم تحالفهم مرّة ثانية مع الجزائريين المقيمين حول مدينة وهران كقبائل بني عامر نتيجة الظروف الاقتصادية الصعبة⁵⁷.

وقد كان للجزائريين مواقف مشرفة في جهادهم ضد الاسبان، كمعركة "مازگران" في مستغانم، ومعركة استرداد وهران.. إلخ⁵⁸، ولعب العديد من العلماء والصالحين دوراً بارزاً في الجهاد، من أمثال: محمد بن علي المجاجي (بأهلول)، ومحمد مصطفى الرماصي (القلعي)، وابا حسون العبدلي، وغيرهم من العلماء وشيوخ الزوايا والرباطات بل وحتى التلاميذ⁵⁹.

لكن وبالرغم من أنّ العثمانيين تمكّنوا من إقامة حكمٍ إسلامي ظلّ طيلة ثلاث قرونٍ شوكّة في حلق العدو، إلا أنّهم جعلوا الحكم (تركياً) وليس (إسلامياً)، ولم يُشركوا الجزائريين معهم فيه، بل احتكروه

لأنفسهم طيلة ذلك التّاريخ، ما مهّد الأمر لقيام ثوراتٍ عديدةٍ، مُتعدّدة الوسائل والغايات، وبدوافع مختلفةٍ: دينيّةٍ، سياسيّةٍ واقتصاديّةٍ، أو أحيانًا تمرداتٍ خُبا في المغامرة، وطمعًا في الجاه والسُّمعة.

الخاتمة

1 - ظلّت السُّلطة العثمانيّة في الجزائر على قطيعةٍ مع المجتمع الجزائري، حيث لم تعمل على الاندماج بالمجتمع، وهذا ما أدّى مع مرور الوقت إلى زيادة الهوّة بين الشّعب والسُّلطة، وأثّر في حالةٍ من عدم الاستقرار الدّاخلي، تخلّلتها العديد من الثّورات بدوافع مختلفةٍ.

2 - ركّز العثمانيون بالجزائر دومًا على المجال العسكري والأمني، مقابل قِلّة اهتمامهم بالميدان الثقافيّ، والحقيقة أنّ العثمانيين ليسوا مسؤولين على تدهور الثقافة الإسلاميّة، ولا على ظهور التّصوّف المنحرف، لكنهم حتمًا ونتيجة سياساتهم الخاطئة، ساهموا في نشر التّصوّف الخرافي والانحطاط الثقافيّ.

3 - كان المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني مجتمعًا مدينيًا إلى حدٍّ ما، ولعبت المدينة دورًا بارزًا في حياة السكّان، والأكد أنّ الاستقرار السياسي النسبي هو من جعل المجتمع يخرج من طور القبيلة، العرش والدُّوار، إلى طور المدينة والتعايش السكّاني المتكامل، لكن ذلك كُله لا يعني أنّ المجتمع الزراعي الاقتصادي انتهى في الجزائر خلال العهد العثماني.

الهوامش:

(1) لقب سعد الله هو من مُستحدثات الاحتلال الفرنسي، الذي فرض على الجزائريين تغيير الحالة المدنيّة على الطريقة الفرنسيّة منذ سنة 1882م، في محاولةٍ لحوّية الشّعب الجزائري لدججه في البوتقة الفرنسيّة، وعند وصول عملية التّلقيب إلى وادي سوف سنة 1934م اختار عمه الأكبر عبد الله اسم جدّه الثالث (سعد)، مُضًا إلى اسم الجلالة. ينظر: أحمد سعد الله، حياتي مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2015، ص 15-16.

(2) ذكر المترجم له في محاضرة ألّقاها يوم 27 أفريل 2005 برحاب جامعة الوادي، أنّه وُلِدَ بِقَمَار، من أحواز وادي سوف، بتاريخ 1927م وليس سنة 1930 كما في ورد في سجل الحالة المدنيّة. ينظر: عاشوري قمعون، "العلامة الموسوعي الشهير الدكتور أبو القاسم سعد الله"، الملتقى الدولي أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي، الجزائر، 13-14 ديسمبر 2015، د.ص.

- (3) أحمد سعد الله، المصدر السابق، ص 59، 68، 147، 173؛ عبد الكريم بوصفصاف، السيرة العلمية والسيرة الذاتية للدكتور أبي القاسم سعد الله، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2004، ص 6.
- (4) الحاج عيفه، "السيرة الذاتية لشيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور أبو القاسم سعد الله"، دراسات تاريخية، مج 3، ع 1، الجزائر، 2015، ص 11.
- (5) ألان كريستلو، "تجميع تاريخ الجزائر الثقافي أبو القاسم سعد الله"، تر: محمد الصالح بكوش، المصادر، ع 11، ص 315.
- (6) أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، بيروت، ص ص 44-45؛ محمد بليل، "الكتابة التاريخية عند شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله بين العاطفة الذاتية والحقيقة التاريخية"، عصور الجديدة، ع 13، أبريل 2014، ص 282، 283.
- (7) عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري: ولد سنة 1695م وتوفي بعد حوالي 90 سنة، وبدأ منذ العشرينات من عمره يحب العلم الإسلامي، بداية بالحج إلى مكة المكرمة، كما زار عديد المناطق بالشرق والمغرب، وقد عاصر أحداثا هامة، وكانت ثقافة كعاصريه لكنه انفرد عنهم بتخصصه في الجانب العلمي، إضافة للعلوم الشرعية واللغوية قراءة وإجازة، وقد ألف في علوم شتى كالطب والفلك والمنطق وعلم الموارد. ينظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تح: أبو القاسم سعد الله، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1983، ص 9 وما بعدها.
- (8) أحمد بن عمار (1119-1206هـ/1707-1791م): أحمد بن عبد الله بن عمار بن عبد الرحمن الجزائري أبو العباس، مُفتي المالكية في عصره، والشاعر الرحالة، من العائلات الأندلسية المهاجرة، استقرت أسرته في مستغانم أو تلمسان قبل انتقالها إلى مدينة الجزائر، ألف في عدة فنون، ومعظم تأليفه تعتبر في حُكم الضائع، وما تذكره المصادر من مؤلفاته: "لَوْأُ التَّصْرِ فِي فُضْلَاءِ الْعَصْرِ" رحلته الحجازية (نَحْلَةُ الْكَيْبِ فِي الرِّحْلَةِ إِلَى الْحَبِيبِ) مفقودة أيضًا باستثناء نبذة منها. للمزيد ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج 2، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص ص 224-235.
- (9) للمزيد حول المؤلفات والأعمال الكاملة للمؤرخ ينظر: عيفه، المرجع السابق، ص ص 1-26.
- (10) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 13.
- (11) كريستلو، المرجع السابق، ص ص 310-311.
- (12) عبد الرحمان النعالي (1384-1470م): ولد بمدينة يسر شرق مدينة الجزائر، اعتنى بالتدريس والتأليف، تعلّم في قريته، ثم انتقل إلى بجاية سنة 802هـ/1400م، وأخذ فيها عن أبي زيد الوغليسي، وأبي عثمان المنكلاقي و المشدالي، وبعد ذلك انتقل إلى تونس سنة 809هـ/1406م وأخذ فيها عن الامام البرزلي، وارتحل إلى القاهرة وأخذ فيها عن الشيخ البلالي والشيخ البساطي، وزار معظم الأقطار العربية في المشرق ثم عاد إلى مدينة الجزائر واستقر بها وأسس فيها زاوية معروفة، ومسجدا مشهورا. من أهم مؤلفاته: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة، روضة الأنوار ونزهة الأخبار، المختار من الجوامع، شرح مختصر ابن

الحاجب في الفقه. ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ج1، مركز الامام الثعالبي للدراسات ونشر التراث، الجزائر، 2011، ص ص 181-182.

(13) أبو راس محمد بن أحمد بن الناصر الراشدي: ولد سنة 1150هـ/1737م بقلعة بني راشد قرب معسكر، وتوفي سنة 1238هـ/1823م، نشأ على طلب العلم، حيث سافر إلى المغرب والمشرق، ترك مؤلفات كثيرة منها: مجمع البحرين، والدرر اللوامع في علم التفسير وعلوم القرآن، أما تصانيفه في علم التاريخ فكبيرة منها: زهر الشماريخ في علم التاريخ، الوسائل إلى معرفة القبائل، دُرُ السَّحَابَةِ فيمن دخل المغرب من الصحابة، درة الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، الحلل السندسية في فتح ثغر ووهران والجزيرة الأندلسية. للمزيد ينظر: أبو راس الناصر العسكري، زهر الشماريخ في علم التاريخ، دراسة وتحقيق: مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، تنسيق: بن عمر حمادو، منشورات CRASC، الجزائر، ص ص 9-12.

(14) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، المرجع السابق، ص ص 39، 19.

(15) سعد الله، المرجع السابق، ص ص 39-40.

(16) للاطلاع على دوافع وتفاصيل هجرة الأندلسيين للمغرب الأوسط (الجزائر)، ومساهماتهم الحضارية. ينظر: حنيفي هلايلي، "الموريسكيون الأندلسيون في المغرب الأوسط خلال القرنين 16-17م"، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد الحميد حاجيات، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران، 1999-2000.

(17) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، المرجع السابق، ص 41.

(18) هاجر أحمد بن يحيى النونشريسي إلى فاس لأسباب سياسية، وهاجر محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى السودان القديم، كما هاجر محمد المشدالي البجائي، وأحمد بوعصيدة، وأحمد بن يونس القسنطيني، وأبي زيان بن ناصر مزني البسكري وابن سعد التلمساني وغيرهم إلى المشرق. ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، المرجع السابق، ص 44.

(19) سعد الله، المرجع السابق، ص 44.

(20) من العائلات التلمسانية المشهورة بالعلم، من أشهر أعلامها أحمد المقرئ التلمساني (1578-1631م)، وهو مؤرخ، أديب حافظ، كان آية في علم الكلام والتفسير والحديث، زار فاس ومراكش سنة 1009هـ/1600م، وعاد إلى فاس مرة ثانية حيث أسندت له ولاية الفتوى والخطابة والإمامة في جامع القرويين، كما له زيارات عديدة إلى الحجاز. توفي بالقاهرة، من آثاره: "نَفْحُ الطَّيِّبِ فِي غُصْنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ وَذَكَرَ وَزَيْهًا لِسَانُ الدِّينِ بْنِ الْحَطِيبِ"، و"رَوْضَةُ الْأَسَى، الْعَاطِرَةُ الْأَنْفَاسِ فِي ذِكْرِ مَنْ لَقِيتُهُمْ مِنْ أَعْلَامِ الْحَضَرَتَيْنِ مَرَاكِشَ وَفَاسَ" وغيرها الكثير. للمزيد أنظر: نويهض، معجم أعلام الجزائر، ج2، مرجع سابق، ص ص 140-143.

(21) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، المرجع السابق، ص 45.

- (22) عهد البيلربايات (1519-1587م): تميّز بارتباط الجزائر الوثيق بالدولة العثمانية، وعرفت الجزائر في هذه الفترة مرحلة تنظيم داخلي ونشأة كيان سياسي بحدوده وعاصمته وأقاليمه، وبرزت كقوة في البحر المتوسط.
- (23) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، المرجع السابق، ص ص 148.
- (24) سعد الله، المرجع السابق، ص 139.
- (25) نفسه، ص ص 140-141.
- (26) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 141.
- (27) أبو القاسم سعد الله، حاطب أوراق، ط 1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص ص 119-120.
- (28) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، المرجع السابق، ص 141.
- (29) سعد الله، المرجع السابق، ص ص 153-154.
- (30) نفسه، ص ص 155.
- (31) نفسه، ص ص 155-156.
- (32) نفسه، ص ص 156-157.
- (33) نفسه، ص 162.
- (34) نفسه، ص 163.
- (35) نفسه، ص 167.
- (36) نفسه، ص ص 166-167.
- (37) نفسه، ص 148.
- (38) ساهم الاحتلال الفرنسي للجزائر في تدهور حالة كثير من المخطوطات، وساعد على هجرتها خارج القطر الجزائري بطرق مختلفة، كما عمل بعض المعمرين على نهب الآلاف من المخطوطات وتحميلها في السفن إلى المكتبات الفرنسية، كما قاموا بإحراق جزء لا يُستهان به من هذه المخطوطات، والعبث بها. ينظر: محمود بوعيّاد، "وضع المخطوطات العربية في الجزائر"، ندوة المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، 1990، ص 184. ينظر أيضا: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع سابق، ج 5، ص ص 332-338.
- (39) كريستلو، المرجع السابق، ص 309.
- (40) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، المرجع السابق، ص 149.
- (41) سعد الله، المرجع السابق، ص ص 150-151.
- (42) سعد الله، المرجع السابق، ص ص 151-152.
- (43) سعد الله، المرجع السابق، ص ص 168-169.

- (44) وليام سينسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ت عبد القادر زبّاد، دار القصبة، الجزائر، 2007، ص 14.
- (45) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، المرجع السابق، ص ص 169-170.
- (46) أبو العباس أحمد الزواوي الجزائري (1398-1479م): متكلم، فقيه مالكي، أصله من قبيلة زواوة، سكن الجزائر وتوفي بها، قال السخاوي من المشهورين بالصلاح والعلم والورع والتحقيق، وقال الشيخ زروق كان شيخنا من أعظم العلماء إتباعا للسنة وأكبرهم حالا في الورع، من آثاره كفاية المريد، منظومة الجزائرية في العقائد الإيمانية. ينظر: نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 96.
- (47) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، المرجع السابق، ص 170.
- (48) نفسه، ص 173-174.
- (49) نفسه، ص 184.
- (50) نفسه، ص 185.
- (51) نفسه، ص 185.
- (52) نفسه، ص ص 185-196.
- (53) نفسه، ص ص 195-196.
- (54) أحمد مجري، "ملاحم التاريخ الثقافي للجزائر في العهد العثماني"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج 8، ع 9، الجزائر، ديسمبر 2012، ص ص 256-257.
- (55) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، المرجع السابق، ص ص 195-196.
- (56) سعد الله، المرجع السابق، ص 197.
- (57) نفسه، ص ص 198-199.
- (58) نفسه، ص ص 200-201.
- (59) نفسه، ص ص 202-205.